عرض سريع

للأدب المصري الاسلامي[1]

تلخيص محمد عبد الغني حسن

كتبتُ في مقتطف يناير كلمة عن كتاب جديد ظهر في سوق الأدب يحمل هذا الاسم «في الأدب المصري الأسلامي» ، وبالرغم من الهفوات التي وقعت في الكتاب فهو جهد يستحق عليه صاحبه الشكر . لان دراسة الأدب المصري الأسلامي قبل دخول الفاطميين مصر كانت ناحية غامضة . وفي الحق انها كانت أشبه بصحراء كثيرة الشوك شديدة الوعورة لمن يريد ارتيادها فهي أشتات متفرقة هنا وهناك لم يجمعها عقد ولم يؤلفها نظام

وأني لسعيد اليوم أن ألخص لقراء المقتطف هذا الكتاب الجديد، لانهُ حريٌّ من المقتطف بكل عناية ، ولانهُ أول محاولة يقومُ بها مؤلفٌ شاب ليكشف القناع عن نواحٍ كثيرة من أدب مصر الأسلامية من يوم أن دخلها عمرو الفاتح الى أن زال عنها ملك بني الأخشيد

ولست في هذا التلخيص محاولاً أن أتقيد بعبارة المؤلف أو أن آخذ نفسي بأسلوبه ، فاذا أنا فعلت ذلك لم يكن لي الاَّ فضل النقل وهو عمل لا يستحق مسانداةً ولا جهداً . وانما سأعرض الكتاب كله أمام القارىء عرضاً أرجو أن يكون فيه القصد الذي ذهبت اليه، وأن يجد فيه من المتاع والاستمتاع بعض الذي تصدتُ له . فالكتاب في مجموعه جيل لانهُ يصور مصر المسلمة في حقبة من الزمن القديم . ولكن لا يصور أحداثها وغاراتها بل يصور أدبها وحياتها العقلية ، يصور الكتابة فيها ، يصوّر الشعر وميادينه الواسعة وما دخل فيه من جديد

***

دخل الأسلام مصر وكان فيها شيء من الآداب اليونانية والسريانية ، وقد حلت اللغة القبطية محل اليونانية في الكنائس ، وتُرجم العهدُ الجديد ، وكتبت تراجم البطاركة ، وألف في التاريخ العام باللغة القبطية ، الاَّ أن ذلك لم يدم كثيراً . وبالرغم من قصر عهده فقد كان المحصول الأدبي القبطي لا يصل الى مرتبة تستحق الذكر في آداب الأمم العامة

---

(١) تلخيص لكتاب (في الأدب المصري الاسلامي من الفتح الاسلامي الى دخول الفاطميين) تأليف الاستاذ محمد كامل حسين بكلية الآداب

وكان طبيعيًّا أن تغزو اللغة العربية مصر لأنها لغة الفاتح الغالب . وكان طبيعيًّا أيضاً أن نجد المصريين يتسابقون الى تعلم العربية وحذقها ؛ بل ان منهم من ألف فيها كابن البطريق رئيس كنيسة الاسكندرية ومؤلف كتاب « نظم الجوهر » في التاريخ العام ، وكابن المقفع صاحب « سير الآباء البطاركة » وهو غير عبد الله بن المقفع صاحب كليلة ودمنة المشهور

ولا يمر الانسان على تاريخ مصر في ذلك العهد من غير ان يُلمَّ ألمامة قصيرة بمكتبة الاسكندرية واحراقها ، وما قيل في ذلك من تأييد وتفنيد على ان المؤلف لم يتعرض لذلك الا بالاحالة على فصل ترجمهُ الاستاذ محمد فريد ابو حديد من كتاب « بطلر » عن فتح العرب لمصر

ولقد سهَّل سرعةَ انتشار العربية في مصر أمورٌ منها : اسلام من أسلم من القبط واحتياجهم الى قراءة القرآن والحديث ، وذلك السبب كان أقوى الأسباب في جميع البلاد المفتوحة كبلاد الفرس والروم . أما السبب الثاني فهو انتشار العرب في ريف مصر واختلاطهم بالقبط واطمئنان كل من الاثنين الى صاحبه الى حدٍّ أهملت معهُ اللغة القبطية

ولقد بلغ من تمكن العربية في مصر في العهود الاولى للفتح الاسلامي أن النفس « شنودة » اضطرَّ أن يكتب مؤلفاته مرة ثانية باللغة العربية ليقرأها الاقباط . وأكثر من ذلك أن مراسيم الكنيسة كانت تقرأ بالقبطية وتشرح بالعربية . ولقد كان الاخفاق نتيجة لحركة قام بها الاقباط في القرنين التاسع والعاشر الميلادي لأحياء اللغة القبطية . على أن ذلك لم يمنع من ظهور قرى مصرية في أزمان متأخرة يتكلم أهلها القبطية في شئون حياتهم اليومية كقرية (درنكة) التي ذكرها المقريزي في خططه . أما الاثر الذي تركتهُ القبطية في العربية فهو قليل ضئيل . وأين منهُ مثلاً الاثر الضخم الذي تركتهُ الفارسية ؟ وعلة ذلك عندي (كاتب هذا المقال) ان العرب اتصلوا بالفرس زماناً طويلاً قبل الاسلام ولم يكن ذلك شأنهم في مصر . فأنتج هذا الاتصال الطويل القديم أثراً كبيراً . وشاهدي على ذلك ان شعراء الجاهلية الذين طوفوا ببلاد الفرس أفادوا من طوافهم كلمات جديدة فارسية حملوها الى اللسان العربي كالأعشى حين يقول :—

وشاهدُنا (الجلُّ) (والياسمين) والمسمعاتُ بأقصابها

***

وفي الوقت الذي كانت تغالب فيه اللغة العربية لغة البلاد ، كان الدين الاسلامي يغزو القلوب شيئاً فشيئاً . واجتمع من العرب الفاتحين والمسلمين من أهل مصر طائفة كبيرة ، أمامها تعاليم دينها وقواعده وسادته ، وأمامها القرآن الكريم يحتاج الى دراسة وفهم وتفسير وتأويل وقراءة وتلاوة . وأول من أقرأ القرآن بمصر هو ابو أمية عبيد بن مخمر المغافري وكان عثمان بن سعيد المصري اول من نقل قراءة نافع الى مصر ، وهو مصري صميم اعتنق آراءه الاسلام ويعرف بساجا هداب (ورش)

وكثر عدد تلاميذه في مصر وصار صيته في بلاد المغرب ثم وصلت طريقة قراءته الى بلاد الاندلس

يأتي الحديث في المنزلة بعد كتاب الله . فلماذا لا يكون له رواته وشراحه ؟ ولماذا لا يتناوله العلماء بالدراسة والشرح . وماذا يمنع ان يرويه الصحابة الوافدون على مصر وفيهم من اتصل بالنبي وأدركه وسمع منه ؟ لقد كان عبد الله بن عمرو بن العاص راوية للحديث في مصر . وقد روي عنهُ مائة حديث صحيح . وكان يمتاز بمعرفة الكتابة والقراءة وهي ميزة لم تُمنح — مع الاسف الشديد — لأهل ذلك الزمان

ولرواة الحديث في مصر مقام في علم الحديث مشهود . وكثير منهم عمدة عند اصحاب الكتب الستة . وأولهم عبد الله بن وهب صاحب كتاب «الجامع في الحديث» وهو كتاب وجد حديثاً في ادفو . ويعتبر من اقدم المخطوطات العربية التي لم تطبع بعد . والتي قد تغير رأي العلماء والمؤرخين في هذا المحدث القرشي ولاء المصري مولداً . ومصدر كتابه في الحديث رجلان مالك بن انس وعبد الله بن لهيعة المصري المحدثان المشهوران فقد أخذ عنهما وخاصة عن ابن لهيعة الذي لم يبلغ من الثقة مبلغ ابن انس رضي الله عنهُ . ومن علماء الحديث الذين لهم في الفقه مدارسة ومذاكرة واجتهاد الليث بن سعد . وما هو بمصري ولا عربي ولكنه فارسي الاصل وانما ولدته مصر فانتسب اليها . واختلفوا في تاريخ ميلاده بين الثانية والتسعين والرابعة والعشرين بعد المائة من الهجرة

ولقد قام بجانب هذه المدرسة المالكية مدرسةٌ للشافعية كان معلمها الامام الشافعي . وعنهُ أخذ خلق كثير . وقام بين المدرستين نزاع في الرأي وصل في بعض الاحيان الى القتال . وتقوم المدرسة الشافعية اكثر ما تقوم على قوة المناظرة . وهي طريقة لم تألفها مصر قبل ذلك . فاتسع باب الجدل والمناقشة وهو بابٌ أخذه الشافعي عن دراسته في العراق والحجاز حيث كانت للآراء صولات وجولات . وحيث كان يحضر حلقات بني العباس هذه المناظرات الحامية الشائقة ويستحسنون باقامتها عندهم ، على العكس مما حدث في مصر فقد اغتاظ الأخشيد لأن بعض العلماء اختلفوا أمامه في أمر وتنازعوا فيه فقال بعد انصرافهم (يجري هذا في مجلسي ، كذبت والله ان آمر بأخذ عمائمهم) . على ان اصحاب ابي حنيفة كان لهم في الحركة الدينية أثر ظاهر في مصر بالرغم من كراهية المصريين لهذا المذهب في أول أمره . فقد غضبوا حينما ولي قضاء مصر اسماعيل الكندي سنة ١٦٤ هـ لأنهُ حنفي . على ان ذلك لم يثن عنان الاحناف عن الدعوة لمذهبهم . وقد ظهر منهم في ذلك الحين القاضي بكار بن قتيبة وقد سجن في الفتنة بين ابن طولون والموفق وسجن . وكان يملي أحاديثه على تلاميذه من أصحاب الحديث وهو في سجنه يطل عليهم من أحد طيقانه

ولما كانت دراسة القرآن والحديث لا تقوم الا على أساس من اللغة متين ، فقد رأينا دراسة

اللغة والنحو والادب تأخذ طريقها الى مصر . ولكنها جاءت متأخرة لانشغال مصر بعد الفتح مباشرةً بالدراسات الدينية . ومن أشهر نحاة مصر الوليد بن محمد التيمي المشهور بولاد ، ولم يولد بمصر ولكنه نشأ بها وكان تلميذاً للخليل واضع علمي العروض والقوافي ، ومنهم أحمد ابن جعفر الدينوري الذي وضع بمصر كتابه (المهذب في النحو) وتعرض في مسائله للخلاف بين البصريين والكوفيين وقد جمع الى النحو الادب وذلك قليل في النحاة ، لأن دراسة مسائل النحو وتفاصيله تفسد الذوق الادبي ولكنها تقوي العدة للجدال والنقاش . وقد وفد على مصر كثير من النحويين مثل أبي العباس الثاني الاكبر ومحمد بن موسى الواسطي وبيوت بن المزرّع والمهلبي النحوي . على ان دراسة علوم الدين والعربية لم تمنع من دراسة التاريخ ، وكان في اول امره قصصاً عن الانبياء والرسل الذين كان لهم علاقة بمصر . ولما جاء بعض الاخباريين وأصحاب المغازي الى مصر انشأوا فيها حركة جديدة في كتابة التاريخ . ووفد عليها الطبري المؤرخ مرتين والمسعودي صاحب مروج الذهب

ومن المصادر الجديرة بالاطلاع على تاريخ مصر كتاب (فتوح مصر) الذي ألّفهُ ابن عبد الحكم المصري وهو قرشي الأصل من اسرة كان لها شأن في احداث مصر السياسية . وكتابه يمتاز بحسن التقسيم والترتيب — على عادة المؤرخين المصريين — وهو ما لا نجده عند مؤرخي العراق الذين لم يهتموا في تآليفهم بالتبويب بل ارسلوها ارسالاً . على ان هذا الكتاب النفيس لم يخل من الروايات المضحكة كوجود شعر عربي محفور على الآثار المصرية . . ! !

كانت الهمة في مصر مبذولة الى ناحية العلوم الشرعية والعربية أو ما يتصل بها كالتاريخ . اما العلوم الكونية فلم يكن حظ مصر منها مما يفتخر به . ولم تبلغ حركة الترجمة في مصر ما بلغتهُ في العراق والشام

واذا انتقلنا من دراسة هذه العلوم المختلفة التي كانت تزخر بها مصر على قدر ما أتيح لها من جهادها العلمي فاننا نستطيع ان نتجه الى الكلام عن الكتابة في مصر . وكيف بدأ بها الامر وكيف انتهى . وهو موضوع لا يخلو من فائدة . والكتابة نوعان اخوانية وديوانية . ولم يكن في مصر ديوان للانشاء في مدة الخلفاء كما يقول المقريزي . وظلّ الحال كذلك الى ان استقلّ ابن طولون بملك مصر وكان بعيد المطامع فاتخذ أول ديوان الانشاء وجعل رياسته لابن عبدكان الكاتب المترسل البليغ . ولا بدع في ذلك فمثل هذا المنصب يتطلب طرازاً عالياً من الكُتّاب

ومعلوم ان يتأثر أسلوب الكتابة في مصر بالثقافة التي كانت بها قبل الاسلام وهي الثقافة اليونانية . ولم يكن هذا التأثر طفرة ولا دفعة وانما كان تدريجيًّا والفرق واضح بين الرسائل التي كتبت أثر الفتح مباشرةً والتي كتبت بعده بزمن . فنجد في الاخيرة الصنعة الظاهرة مما تحدث اللذة عند السماع

تناولت موضوعات الكتابة في مصر نواحي كثيرة الاّ ان الكتابات بالبشارة بوفاء النيل شغلت جزءاً كبيراً من اهتمام الكتّاب . كما كان للبشارة بفتح الخليج مثل ذلك . ولقد ظهر في ميدان الكتابة أيام الطولونيين عدد من الكتّاب أمثال الحسن بن رافع وابن عبدالغفار المصري واحمد بن أيمن ، وكان الطولونيون يفضلونهم على الوافدين من العراق ويحتملونهم على علاتهم كما صنع احمد بن طولون مع ابن عبد الغفار

وظهر أيام الاخشيديين ابراهيم بن عبدالله النجيري ومحمد بن كلا الكاتبان . والكلام عن الكتابة يسوقنا بالطبع الى الكلام عن الشعر . ومن دواعي الأسف ان القدر الصالح منهُ للحكم على طبيعته في صدور الفتح العربي ليس كافياً . فقد ضاع أغلبه ، وغطت العلوم الدينية على ممارسة الشعر وحفظه وروايته . ووجد الشعراء أبواب الخلفاء أرحب من أبواب الولاة فقصدوها . على انهُ كان بين الولاة من يطرب للشعر ويسمعه ويرويه . ومنهم من كان يعالج الشعر ويصنعه ولكن شدة تدينه منعته من كثرة الانشاد كما يروي الكندي عن الوالي عقبة ابن عامر . وكان عبد العزيز بن مروان والي مصر زمن الأمويين يفتح بابه للشعراء الذين قصدوه استيناقاً لأنفسهم منهُ اذا ما صارت اليه الخلافة الأموية . وممن وفد عليه الشاعر نصيب الأسود وله معه اخبار طويلة تجد في كتاب الاغاني تفصيلها . ووفد عليه أيضاً الشاعر النزال الرقيق كثيّر صاحب عزّة كما وفد عبد الله بن قيس الرقيات وذكر جلوان في شعره

وفي أيام العباسيين قامت بمصر فتن كثيرة . وأصبحت هذه البلدة الطيبة مهداً لاضطرابات سياسية وثورات داخلية . فكان من المعقول أن يشترك الشعر في هذه الاحداث . ولمَ لا يكون ذلك وقد اشترك قبل الاسلام فيما حدث بين عبس وذبيان وغير عبس وذبيان ؟

وكانت الثروة العربية والتعصب القبلي (نسبة الى قبيلة) سبباً من أسباب قيام الفتن في مصر . فلقد جددت الفتن الجاهلية واستعيدت أيامها التي قضى عليها الاسلام . ورأينا في مصر فتنة تقوم وتشبه من وجوه عديدة حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان . واشترك الشعراء في هذه الحادثة بشبا شعرهم . وكان الشاعر المصري يحيى الخولاني ممن خبّ فيها ووضع

وقد ملأ العربَ في مصر شعورُ الفاتح الغالب فأثار ذلك الشعور أهل مصر . وثار القبط ثورتهم المشهورة طلباً للمساواة في المعاملة . فاشترك الشعر في هذه الثورة . وكان للخولاني فيها مشاركة هذه المرة أيضاً . وقد عرف هذا الشاعر بشدة وطأته على الاقباط الذين أسلموا وحاولوا الانتساب الى أصول عربية

وكان الشعر في مصر يجري عليه ما يجري على الشعر العربي من أحداث في كافة الامصار ، فقد قيل في المدح والهجاء والرثاء . وقد شغل الشعراء بهاجاة الولاة والقضاة عن مهاجاة

بعضهم بعضاً كما حدث بين الفرزدق وجرير والاخطل والبعيث في الشام

وبالرغم من كثرة ما وصل الينا من شعر اللهو والمجون والخمريات في بغداد وما حواليها قال الشعر المصري في تلك الناحية لم يدونه كتّاب الادب ومؤرخوه . وليس من شك في ان مصر كانت في ذلك الحين موطن سمّار . ومجمع خلّان ومجال عبث ومكان شراب . فقد أمر الوالي علي بن سليمان بمنع الخمور مدة ولايته لكثرة انتشارها . وكان القاضي العمري يطرب للغناء في مجلسه ومجاء الحولاني الشاعر السابق ذكره

ولم ينقطع سيل الوافدين على مصر من الشعراء في هذا العهد . فقد خرج أبو نواس الى مصر قاصداً الخصيب ونظم قصيدته الرائية المشهورة التي مطلعها : —

أجارة بيتنا أبوك غيور ومبسور ما يرجى لديك عسير

واشترك أبو نواس في الحياة المصرية ، ولا شك انهُ قال فيها شعراً كثيراً الاّ انهُ ضاع كما يحدثنا بذلك حمزة الاصفهاني وديك الجن

وكذلك وفد على مصر ابو تمام حبيب بن أوس الطائي وأقام فيها . وقد عدّه الكندي أحد فضائل مصر في كتاب له توجد منهُ نسخة خطية في دار الكتب المصرية ، وفي مقابل هؤلاء الشعراء الوافدين الى مصر كان هناك شعراء مصريون يرحلون عنها الى العراق وغيره مثل (ماني الموسوس . واسمه ابو الحسين محمد بن القاسم

ومن الشعراء المصريين سعيد بن عفير ومولده في مصر سنة ١٤٦ هـ وقد ولي قضاء مصر كما ذكره السيوطي وان كان لم يرد له ذكر في كتاب الكندي — ومنهم المعلى الطائي وكان معاصراً لابن عفير ، والحسين بن عبد السلام وقد اتصل بأحمد بن طولون فكان شاعره ومنادمه لاجتماع شيء من الظرف والمطايبة عنده

أما شعر الرثاء فقد سبق المصريون أهل الاندلس في رثاء البلدان الزائلة وذلك غير ما كان معروفاً الى أمد قريب . فمن دولة الطولونيين لما زالت ودمرت القطائع (قطائع ابن طولون) سمعنا الشعراء المصريين يكون هذه الدولة ويبكون آثارها . وكان ذلك قبل بكاء الاندلسيين بزمان . ولشاعر محمد بن خشويه المصري قصيدة في رثاء قصر الميدان منها : —

أين الملوك التي كانت محل به وأين من كان بالايقان دبّره
وأين من كان يحميه ويحرسهُ من كل ليث يهاب الليث منظره
ضاع الزمان بمن فيه فقرنهم وحط ريب اللى فيه فعمّره
وأخلق الدهر منهُ حسن جدّته مثل الكتاب محا السطران أسطره

والقصيدة وان لم تكن عالية النفس إلا ان فيها كثيراً من حرق اللوعة الكامنة ومرارة الأسى العميق